حول ديوان « ملامح من الوجه الأنبادوقليسي »

أحزان بيدبا...

بقلم محمد حافظ رياب

من يطوف ديـــوان الشاعر المصري محمد عفيفي مطر الثـــاني « ملامح من الوجه الانبادوقليسي » عليـــه أن يتعلم كيف تكون المعاناة الشاقة المثيرة المرهقة ــ في حوار الفكر والفن ــ شيئا حميما وممتعا فـــي آن .

لقد أتعبني ــ في الحق ــ هذا الديوان . وأمتعني وروضني .

* * *

كيف لي أن أبدأ ؟

تلك كانت أول المشكلات لدي !

اننا أمام عنوان صادم : ملامح من الوجه الانبادوقليسي .

هل أراده الشاعر منهجا يحدد ــ على طول القصائد الثماني عشرة التي يحتويها الديوان ــ فكريته ؟

ولكن . من يكون أنبادوقليس ؟

كان شاعرا وطبيبا ومناضلا وعالما وصوفيا وفيلسوفا وخطيبا ساحر البيان . عاش في جزيرة صقلية . وتـــولى فترة زعامة شعبها مناضلا عن حقه وحريته ضد دعاة الارستقراطية ، وأحب الطبيعة في جزيرته حيث القمح والبلوط والزهـــور تضفر مروجا مزدانة بالعيون والفوارات ، وحيث من ناحية منها يقعى بركان اتنا يلتفع الثلج عمامته ويحتوي النار جوفه .

كان لغـز الجزيرة في هـــذا الزمان ان مـــردة حدادين يضربـــون بمطارقهم صفائح الحديد تحت البركان ليعـــــدوا منها صواعق لاله الاولمب الغضبى الصاخبة . وهناك عند مضيق مسينا كانت الهة الغربة سكلا تعوي عواء لا ينقطع وتتقاتل مع خاربديس قتالا قيل ان السفـن العابرة كانت تجار منه بالشكوى .

لم تستطع الاسطورة في صقلية اذن ان ترفع رأسها الى السماء فعبدت آلهتها الارضية التي كانت تخافها وتحبها . لان هذه الآلهة هي التي كانت تمدها بطيب الثمر والخمور والفوارات . وهي التي تخيفها بقوة اتنا وجبروته . وهذه النظرة التي انصرفت بصقلية عن السمـاء الى الارض جعلتها ترى القداسة في جـــــوانب تلك الارض .

كتب انبادوقليس فلسفته شعرا بلغته الايونية وعلقها على الآثار وشواهد القبور . وشرح فلسفته هذه في قصيدته « عن الطبيعة » وهي احدى بقايا قصائده التي استطاع كارستن جمعها وطبعها فـــي كتاب صدر بامستردام سنة ١٨٣٨ .

في فلسفته حاول انبادوقليس أن يوفق بين فلسفات سابقيـــه . فاذا كان بارمنيدس قد أسس فلسفته على وجود مطلق يستحيل تغييره هو أساس الكون لديه ، واذا كان هرقليطس نافضه في اثبات حقيقة التحول والتغيير باعتبارهما جوهر الكون .. فقـــد وفق انبادوقليس في أن يؤلف منهما حقيقة واحدة . فليس الوجود ــ عنـــده ــ عنصرا واحدا متجانسا أو نقيضين بل مجموعة من العناصر أظهرها التـــراب والهواء والنار والماء ، وجميعها متساوية في الخلود ومنها نرى كـــل ألوان المادة المختلفة . والحركة بينها تكون نتيجة قوتين متضادتيـــن هما الحب والكراهية : الحب يؤدي الى التنـــاغم والتناسق والاتحاد بين العناصر . والبغض يؤدي الى التنافر والتفكك والانحلال في متتالية دائمة يجمعها الحب في أحد عصورهـــا وتبعثرهـــا الكـــراهية في عصور أخـــرى .

وفي قصيدته « التطهيرات » يصف دورة شخصية تتعاقب فيها البراءة فالدنس فالسقوط فالتطهير فالتأليه .

..وقد وفق الشاعر في استلهام كثير من فلسفة أنبادوقليس : استلهم فكرة ثنائية الحب والكراهية اللتين تسببان الحركـــة ومزجها بالفعل الشعري وحركته الداخلية :

« الحب بيننا كراهة والبغض آية العناق ... »

« رأيته تحت تأرجحات الضوء والظلال ... »

« يا محترقا في حبك القاتل والمقتول ... »

« أتهم الصفاء والعكارة ... »

« حولتني صبية ناهدة سقيمة ... »

وهـــي فكرة تنطوي على رؤيـــة الشاعر الرئيسية للحقيقة : صراع بين علم وخرافة . بين مكتسب وموروث . بين عقل وحدس . بيـــن تصور كل هذه العناصر كنقائض وتصورها كأشباه . بين داخل الانسان وعالمه الخارجي . بين تقبل ورفض . بين اقبال واحجام ...

وقد فرضت هذه الثنائية تشكيـــلا خاصا في البناء الشعري . استخدم في بعض قصائده الاسلوب الحواري الذي يجسدها دراميـــا وبالشكل الذي يصالح بين النقائض التي تنطوي عليها . وعبر عنهـــا في البعض الآخر من خلال كلمات مركزة تحدق فـــي بنائه الشعري كنصل سيف . وأحيانا يبدأ بها احدى قصائده حيث يقول في قصيدته « صوتان عن الحق » أولى قصائد الديوان :

« الحق قد يقال مرتين

فمرة يقوله العزاف

ومرة يقوله السياف ....

موزع ومضيع اذن الحق . بين العراف والسياف .. بين الخرافة والقوة .

هذا المقطع وما يليه يتوج القصيدة كلها ـ بل الديوان ـ بقلق الباحث عن الحق المهدور بين الخرافة (مطلسما في عقد الاعشاب والحروف) وبين القوة (مغتسلا في دمه البري) متخذا صورا شعرية متتالية . وبادئا به بانبجاس يذكرنا بمطلع سفر الجامعة (العهد القديم) : باطل الاباطيل الكل باطل . أو بمطلع قصيدة « الظل والصليب » للشاعر صلاح عبد الصبور : هذا زمان السأم . او بمطلع قصيدة « المسيح الذي أعيد صلبه » حيث يقول الشاعر عبد الوهاب البياتي : كل ما قالوه كذب وهراء .

ووفق الشاعر أيضا في استيحاء فكرة التناسخ التي كان يؤمن بها أنبادوقليس .

يقول في مطلع قصيدته « شكوك » :

« في منجم الكيمياء والتحول الاخير
تنحل في دمي روابط الاشياء
ونرقص العناصر المفككة
تنقلب الفروع في الجذور
والنار ترمي ثمارها في الكرمة المحترقة
والماء في دمي بت بذرتي المغلقة
يشتعل الهواء
وتحبل الرماد ... »

قاصدا بذلك مزج ما هو انساني بما هو مادي بتصوف شعري أثيل ولغاية تفتيت كل ما هو كائن في لحظة التهيؤ والفعل والمبادرة والكشف .

ومن فكرة التناسخ هذه ، كان أنبادوقليس يشعر بضعف وضيق القوى المودعة في الانسان ويسخر من حمقه وغروره . وقد استطاع الشاعر أن يولد من هذه الفكرة صورا بالغة العمق تصور عذاب الانسان وتمزقه :

« عذبني اني أملك هاتين العينين ... »
« أكرهني العالم أن أتجسد في وجه مهجور ... »
« تخونني الدماء في يدي ... »
« فعدت .. في يدي حمجمتي المجوفة ... »

اللحن الذي توقعه قصائد هذا الديوان يجد أرضيته الفكرية اذن في فكرة التطور عند فيلسوفنا اليوناني القديم انبادوقليس اجريجنتيه حيث وجد فيها الشاعر استجابته التي انطلق منها لفهم ورصد ظواهر العصر وانسانه فأحالها من مستواها الفلسفي المجرد الى المستوى الفني المكثف أخذا من ملامح وجه هذا الفيلسوف . وهو طموح لا بد أن نسجله لهذا الشاعر حين يدق بشعره ـ بكل ما في شعره ـ باب الفلسفة ليخلق من قصائد هذا الديوان عملا فنيا يسيجها ويشي بها عاكسا في هذه القصائد رؤياه وغربة انسانه المتمثلة :

(يتقطر أسى حي داخلنا حين ننتهي من قراءة هذا الديوان الصغير الكبير . الشاعر يدعونا ـ خلال بحثه عن الحق المهدور ـ الى التفتيش عنه في ذواتنا وسلوكنا ومشاعرنا في زمان « برزت فيه رؤوس كثيرة لا رقاب لها . وهامت أذرع منفصلة لا أكتاف لها . وزاغت عيون وحيدة تشتاق الى رؤوس . وهامت أطراف بغير أنيس . وتولدت مخلوقات كثيرة لها وجوه وصدور تتجه الى جميع الجهات . بهائم لها وجه البشر . وبشر لهم رؤوس البهائم . ومخلوقات امتزجت فيها طبيعة الانثى بالذكر ـ من مقدمة الديوان)

وحاملا على شرف هذه الرؤيا بنية واحدة ومتماسكة من خلالها بحيث ان كل قصيدة تمثل احدى تنويعات هذا اللحن مهما كانت روافدها أو عناوينها . ومن ثمة فعلى الديوان ان يحمل عنوانه الخاص الدال :

(في شيوع كانت العقيدة في الماضي تضم عديدا من المواقف والتجارب . وكانت مجموعتها الشعرية بالتالي ـ وليس ديوانها ـ تحتشد بعديد من القصائد المتباينة التي لا تستطيع أن تقدم لنا ـ عبر موفور مواقفها وتشتتها ـ موقفها المحدد . فلم يكن هناك بالتالي ما يدعو لاختيار عنوان خاص يملك ايحاء أو دلالة هذه المجموعة أو تلك . واذا كان صعبا استنطاق التجربة التي تحملها قصيدة مفردة في عنوان فأصعب أن يهتدي الشاعر الى العنوان الذي يلخص التجربة العريضة في ديوان بأكمله . وكانت احدى محاولات الخروج من هذا المأزق ـ أغلبها في أحيان كثيرة ـ لجوء الشاعر الى اختيار عنوان اكثر القصائد حملا لدلالات رؤيا الديوان كعنوان له) .

ولقد كانت هناك محاولات جادة سبقت محاولة شاعرنا في لحمه الفلسفة بالنسيج الشعري على ما بينهما من اقتراب :

(ففي « الكوميديا الالهية » للشاعر الايطالي دانتي أليجييري « الفلورنسي مولدا لا خلقا » تلتحم الفلسفة بالنسيج الشعري فتشد من خيوطه وتتداخل مع مكوناته وتصبح جزءا لا يتجزأ من هذا النسق المبدع الذي يكون في مجموعه ذلك الانتاج الفني العظيم حيث التفمت الفكرة الفلسفية مع الاحساس الشعري في كتلة واحدة فأثرته وأخصبته وتخللت كل عناصره قبل أن تمتزج بها جميعا وتتحد معها كلها . وفي هذا الاتحاد ابراز لقيمتها الجمالية التي تستمدها بطبيعة الحال من تماسك الاجزاء المكونة لذلك البناء الشامخ بحيث ان أية محاولة للفصل بينهما تكون دحضا لا مبرر له لهذا الفن الاصيل .

وقبل دانتي امتزج الشعر بالفلسفة كما في مؤلفي بارمنيدس (طريق الصدق) و (طريق الرأي) . وهذا الاتجاه قد انعكس ايضا على مؤلفات هيرافليطس وزينو وانكساجوراس . الا ان الفضل الاكبر في تقدم هذا الاتجاه يرجع الى لوقريطيوس الذي خرّج منهاجه الفلسفي صورا شعرية أصيلة محاولا في ثنايا عرضه لذلك المنهاج أن يبرز لنا المعالم الشعرية المحسوسة في تطابقها مع أفكاره الفلسفية وقضاياه الميتافيزيقية في تجسيم لرؤياه وتركيز لفكره في بؤرة شعورية تعتمد على الحدث بقدر اعتمادها على الشعور الصادق والتأمل الامين . وهذا هو موطن الجدة في منهاج لوقريطيوس وفي شعره الفلسفي وفي محاولاته العديدة للتعبير عن الحياة اليومية .

ومع ان أرسطو قد نقد هذا الاتجاه في كتابه (فن الشعر) حيث الشعر عنده لا يجب أن ينافس الفلسفة وألا يتعرض بالتالي للكلي المجرد . وانه لا يصح للشاعر أن يصوغ شعره من هذه الافكار المجردة ومن ثم انتقد أنبادوقليس لانه عبر عن فلسفته بالشعر أو بعبارته (فن الشعر) وهذا ـ في رأيه ـ ما لا يجوز ... غير انه يتبقى مقدرة الشاعر الفنية الفائقة في التعبير عن فلسفته . وهي في « الكوميديا الالهية » تشكل المحور الذي تدور حوله حيث يلتف هذا المحور مستويات عاطفية ووجدانية ورمزية عديدة ومتداخلة في الهيكل العام للقصيدة . ويتصل بها الكثير من الفعال والاحداث يحدها اطارات وأنظمة فلكية ساعدت دانتي على تجسيم فكرته عن الجحيم والمطهر والفردوس ..

وبتعبير آخر : ان ما نحس به من نفور وكآبة وعبوس

في « الجحيم » يكمله احساس آخر بالجمال وبالشفوفة الروحية في « الفردوس » . هذا بالاضافة الى التركيب الهرمي الكبير القائم على مدارج المحسوسات والمعقولات والروحانيات .

وبعد دانتي استطاع شعراء المدرسة الميتافيزيقية في انكلترا (جون دون ـ جورج هربرت ـ هنري فون) في نهاية القرن السادس عشر وعلى طول القرن الذي تلاه أن يهبوا شعرهم القدرة على التعبير عن مشكلات فلسفية وان اقتصرت منها على جوانبها الدينية والعاطفية والصراع بين المادة والروح والتعبير عن تعقيد الحياة وتشعب الحضارة . وكان اليوت أقرب الشعراء المعاصرين في نحو هذا الاتجاه باستخدامه التحليل الفلسفي في الاطار الشعري .

وبعكس أرسطو نجد فيلسوفا آخر هو « سترابون » يدعو ان تكتسي الفلسفة بدم ولحم شعريين حين يقول « ان استخدام الشعر للوزن ليس الا وسيلة لاجتذاب الجماهير الى ما يحمله من فلسفة ») .

على ان أفق التجربة التي يقدمها لنا ديوان عفيفي مطر تتبدى اكثر بمعطياتها من هذا التحديد وان وجدت فيه أرضيتها .
كيف تشكلت اذن تجربة هذا الديوان ؟

... وأنت تقرأ قصيدة من القصائد التي يضمها ينتابك احساس بالضيق (البعض يخنقهم الغيظ) لان كل قفزة تؤدي بك الى متاهة تسيج عالمه الشعري وتختص به وتتبدى في التالي :

أولا ـ غرابة اللفظة الشعرية : التي تنبض في عروق جسمه الشعري ناشزة يقسو تلمس المعنى فيها ويكاد يتوقف مثل (السيمياء ـ الكاؤوس ـ الوضم ـ اللحم الفريض ـ المزابل ـ السفاف ـ المشاقص ـ الديات ـ التسموفوريا ....) رغم خطأ اقتناصها من النص الشعري باعتبارها جزئيات صغيرة في البناء ككل وباعتبارها ايضا ـ في قاموس هذا الشاعر ـ ليست مجرد رمز يشير الى فكرة او يوحي بمعنى او يدل الى احساس فحسب .. بل نسيج متشعب من صور ومشاعر انتجتها تجربة هذا الفنان ووجدت فيها تعبيرها فزادت معناها خصوبة وعراقة .

وهو في احيانه لمثل هذه الالفاظ التي كان بخيل لنا انها ماتت او فقدت القدرة على الدلالة . وفي انتقائه للغريب منها انما يعود بها الى نقاوتها وينتشل جوانب العافية لها . يعالجها معالجة اللهيف ويقلبها رفيقا كأنها كائنات حية بين يديه . ويستخدمها في عيار شفوفتها وبما يكمن فيها من عاطفة . وهو في تجربته هذه لا يحاول أن يضع أصباغا متألقة على تجاعيد قديمة حين تفاجئنا مثل هذه الالفاظ .

يقول الناقد الالماني هيزلهوس : « يمكنني أن ألفت النظر الى ظاهرة خاصة في الشعر المعاصر وهي تنفيم الالفاظ القديمة غير الغنائية » .

وقديما قال العالم اللغوي ابن فارس : « أحب الشعر أن يخالف اللفظ فيه معناه » .

وتحضرنا في هذا الصدد أمثلة من القرآن الكريم . ففي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه وما حسنت في كلام قط الا في موقعها منه وهي كلمة (ضيزى) من قوله تعالى « ألكم الذكر وله الانثى تلك اذن قسمة ضيزى » .. ففرابة اللفظ أشد الاشياء ملاءمة لهذه القسمة التي أنكرها الله تعالى على العرب . وكقوله تعالى « طلعها كأنه رءوس الشياطين » فهنا ليس حتما معرفة المعنى الدقيق للكلمة حتى يكون لها الوقع المنشود . بل ان قوة وقعها في النفس صادرة عن غرابتها وندرتها في الاسماع ـ (فنون الادب : د. زكي نجيب محمود) .

... عسر مصفى اذن الفاظ هذا الشاعر . لا تنكفىء في خلاء التبسيط المباشر فحسبها غناها الصعب الذي شكل انعطافة قوية في الثورة على الكليشيهات المتحجرة للمعجم الشعري التقليدي . وان ظل مقياس جودتها ـ في شعر عفيفي ـ مرتبطا بمدى قدرته على السيطرة عليها وتطويعها .

ثانيا ـ كثافة الصورة الشعرية وتتابعها : فالصورة الشعرية لديه ليست مجرد منمنمات زخرفية تضاف الى النسيج الشعري بل وسيلة لاستكشاف التجربة الشعرية ذاتها . فادراك الشاعر الحاد وتعطشه الى معرفة شكل العالم اللامتوازن واهتمامه بالتعبير عما يدرك يساعدانه في خلق الصورة الشعرية بشكل خاص . وهي صورة تبدو في عدم انسجامها لا منطقية تزعج الفهم العادي وتقيم عليه « لاننا نسقط في لزوجة الالفة في الصباح » . تقرب أو تبعد أو توحد بين أبعاد لا يربط بينها الشائع والمألوف . لكنها تحلق وتهدر :

ومن يقرأ شعره يحس انه داخل (لابيرنته) هائلة من الرمال والظلمة والصمت والبروق والمناجم والاعين الشاخصة ... تطالعك أنى التفت وأنى هربت بعينيك . التحلق يحل بديلا لتوقف جامد . والتفجر بديلا لتأن بارد .. تمتزج في صورته بطزاجة وتمرد تمكنانه من صهر مدركاته الحسية وعاطفته :

« عذبني اني أملك هاتين العينين

عيناي السوداوان

في ليل القبو الدامي شباكان

بئران انسكبت في أغوارهما النيران

وتعارك صدر الارض ونصل الشمس ... »

العيون والليل والقبو والشبابيك والآبار والنيران تكون كلها العناصر (الخام) لهذه الصورة . وكلها عناصر طبيعية محسوسة . غير انها خلال علاقاتها الجديدة صنعت صورة ذهنية في تماثلها . فسواد العينين يماثل شباكين في ليل القبو الدامي أو بئرين يمتلئان بالنيران أو ارتماء الشمس على الارض ... هذه الصور الجزئية المتتابعة يلح عليها الشاعر في ادراك صلاتها الخفية واقامة جسر معنوي يتخطى حدود العيون الى شباكين في قبو او بئرين مشتعلين بنار . حيث لا تختلف صورة هذه العيون التي يشاء الشاعر أن يجعلنا نحس مدى عذابها عن الآبار المشتعلة معبرا بذلك عن عذاب انسان العصر .

وهكذا نتعمق رؤية الشاعر من خلال صوره التي تجسم بتتابعها وتوالدها واختلافها في الثقل والمعنى والاحساس ما ينم عن موقفه .

ومن البدهي ان الشاعر لا ينقل ـ اذن ـ لنا العالم الخارجي كما هو في لحظته الاستاتيكية وانما بشكله من جديد . ولهذا فان من الصعب الحكم على صورته الشعرية تبعا لمطابقتها لهذا العالم الخارجي وان خرجت منه بحثا عن المماثل والمشابه لعاطفته .. تترابط داخل القصيدة بضرورة فنية أقوى من مجرد ادعاء الكلمات انتظاما في أنماط .

فصورة المعرفة في طفولة الانسان وهي أشد الفترات ثراء وظلاما يكشف لنا الشاعر عن قيمتها :

« أمي ولدتني ذات مساء

فانسربت روحي في ضوء المصباح

وهربت خلال الظل ولون الماء

ودخلت عبيرا في ذرات الريح

ولبست فميص الصمت

وأكلت الكعك الاسود في أعراس الموت ... »

وهذه صورة حزن لنهار الشاعر :

« أفطر الصبح بعنقود العذاب

أتغذى فلذة تسقطها أية جيفة

أتسلى بانتظار الكذب الأسود أن يفقس

في عش الصحيفة ... »

وهذه صورة للشاعر :

« رأيته بالشارب المهدول

ووجهه المصفر والبشائر التي تبيض في

مفرقه ، وصوته المخنث المهزول ... »

ثالثا ـ التناغم بين اشياء العالم ومعانيها : موحدا القرائن الخفية بينهما توحيدا يعمق المعنى . فالاحزان لها سنابل (الحزن الممتلىء) والدهور لها عقيدة (تقلب الاحداث) والضراعة لها نطفة (أصالة القيم) والامومة لها اشجار (كثرة العطاء) .. مخلصا فكره وقلبه من قيود ذلك التحتيم الضيق الذي يفرض على المتلقي ان جميع ما يحسه منها ان هو الا قوالب مصبوبة ابدية لم تكن قط على غير الصورة التي يحسها . ولن تكون ابدا على غيرها . كأنما كل صورة وجود قائم بذاته لا يدل الا على معنى واحد ولا يتغير .

وهذه المحاولة ترتوي في الواقع من اتساع حدقة الشاعر في محاولة الافصاح عن كل ما يدور في داخله وعدم استحلابه لواقع جبري متوارث .

رابعا ـ تمثل الموروث الشعبي : وهو موروث يفتح للشاعر منهلا ثرا من تلاميح الاسطورة واشارات الميثولوجيا وايحاء الطقوس والشعائر والخرافة . يتمثله الشاعر في استحواذها على المتلقي بتنوير داخلي وتأكيد عاطفي . وربما كان من غير المستطاع بسهولة تبين هذه الاشكال التي اكتسبها الشاعر وطعمها في مناخ قصائده ، ولكن المتلقي يحس دائما تلك الايقاعات الصوفية المنبجسة من طبيعتها وجمالها الداخلي الاخاذ الذي يخفق باجنحة ملونة :

« دخلت في عباءة المدينة

فانفتحت ابوابها الحصينة

وحينما استدرت للرجوع

تشبثت اصابع الاحجار

بما ارتديت من مناسج الاسفلت

تشبثت بما ارتديت من خلاخل الاشعار ... »

العباءة والابواب والاحجار والاسفلت والخلاخل ... توقيعات من مرويات شعبية يستمدها الشاعر من عوالم الرقي وتلاوين الحكايا الشعبية وأناشيد الطقوس ويلتقطها ليرسم عبرها العالم الذي يقدمه أو ليتبنى خلالها الدلالات العامة التي تحملها كي تنقل عواطفه وأفكاره بواسطتها . وهي عبر الفترة الشعرية السابقة ترسم عالما يتسم بالعزلة والخيبة يرفضه الشاعر ويرفض بالتالي اقنعته التي ذكرها خلال بحثه عن حضارة العقل والحرية والعلم رافضا ـ على شرف امانته لرؤياه ـ أن يستعير لها من الميثولوجيات اليونانية او البابلية أو غيرها . فكفاه هذه التوقيعات المتغلغلة في الوجدان الشعبي وما تحويه من طزاجة الحس بالحياة والمخاوف الوجودية .

ولا يقتصر تمثل الشاعر لهذا الموروث عند حد رموز بعينها فقط بل يتمثل كذلك أفكارا شتى من هذا الموروث .

واذا أخذنا فكرة (التجسد) كأحد الافكار الرئيسية التي تلون هذا الديوان نجد لها ارضية في الاسطورة المصرية القديمة التي تقول: « ان كهنة مصر قد دأبوا على دفن تماثيل مصغرة للاله أوزيريس مصنوعة من الطمى وحبات القمح . وفي آخر العام أو بعد فترة قصيرة كانوا يجدون بعد استخراجها من باطن الارض ان القمح صار نبتا وبرز من جسم الاله . وكان القوم يرجحون بهذا النبت على انه فال طيب أو بالاحرى على انه السبب في نمو الزرع » (جيمس فريزر : الغصن الذهبي) .

... بل ان رموزا بعينها تحتل في قصائد الديوان ركنا دائما وتسري في مجراها بلا انقطاع كالدم والعين والنار والهواء واللبن والطين والسنابل .. بين هذه العناصر والنقائض يناضل الانسان ويكافح وصولا الى منطقة الرؤيا اليقينية تخلصا من العباءة والظلمة والاسفلت .

ونكتفي برمز واحد هو « الدم » حيث :

« مغتسلا في دمه البري ... »

« ربما يسمعني السيف حوار الدم في اللحم الفريض المستباح .. »

« بكت اليك ـ في دمي ـ الاهلة القديمة ... »

« فعدت .. في دمي خناجر القصدير ... »

« أطبقت على دمي المدينة الدهليز ... »

« منفردا الا من الدم الذي تساكبت خيوطه في طرق الرواء .. »

« أصحابه ـ اذ شربوا من دمه ـ تجسدوه .. »

« أو نكتة يضيع فيها دمنا المسفوح ... »

« تنحل في دمي روابط الاشياء ... »

« والماء في دمي يميت بذرتي المنفلقة ... »

« فاقتلعي يا كيمياء الارض ـ من دمي ـ احتقاري ... »

« تخوننني الدماء في يدي ... »

« ليثبت فيها الدم المزهر ... »

« لتسمعنا من حكايا الدماء التي طرحتها خيول الشرائع .. »

« أبحرت في الدماء ... »

« كانت الارض جنينا في دمي لم يبلغ التاسع ... »

« وأنا زهر الدم الطالع من كل قتيل ... »

« واستفرغ من دمك العاصي ما حملت من الادواء ... »
« وتكلم لغة واحدة دموية ... »
« لتسمعنا عن تخبطك الدموي بعرس الردى والشباب... »

والدم عند القبائل البدائية يعني التوتم . وفي الصور المسيحية يرمز الى الحياة البشرية التي عاشها المسيح « واخذ الكاس وشكر واعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم لان هذا هو دمي الذي للعهد الجديد يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » (انجيل متى) . واللون الاحمر منه يشير عادة الى الشهداء الذين ماتوا دون ان ينكروا المسيح . وفي القرآن الكريم يشير الى الحياة « انما حرم عليكم الميتة والدم » (سورة البقرة) و « الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا » (سورة الانعام) .

خامسا ـ توتر المناخ الشعري : مستخدما البحور المركبة التي يمكن ان تتكون من اكثر من تفعيلة لنقل هذا التوتر المطلوب . وان كان استخدامه اكثر لتفعيلة الكامل (متفاعلن) التي تمنحه خاصية الاندفاع والتدفق والمقدرة على تلاحم الابيات خاصة وان هذا البحر يمكن ان يجيء قرض الشعر منه على صور شتى حسب ارتباط العروضة بالضرب مستطيعة اثارة الحس بتوترها الوحشي الذي افاده كثيرا استخدام الجملة الفعلية الدينامية في بدايات معظم الابيات .

« هجرتني موسيقى الافلاك ... »
« عدت منكم.. بعد أن دوخني الليل وأعماني الطواف... »
« ضحكت حين انطفأت ساقية العطاء ... »
« تلاحمت أفراحنا البائسة الشوهاء ... »
« وقفت فوق صدرك الرحيب كي أنام ساعة وارضعا... »

واستخدامه المكثر والموحي لحرف « في » كمفتاح صول يلون معظم تفعيلاته : في ظلمة الاباحة ـ في الوضم الليلي ـ في دمه البري ـ في السرج المنطفئة ـ في شرائع الدوائر ـ في نذر المطاوعة ـ في طقوس الكرم الزري ...

... هناك ملامح اخرى يمكن لنا ان نضيفها الى عالم عفيفي الشعري كاستخدام الاسلوب الحواري تجسيما دراميا لرؤية أو نتيجة ادراكه ان عالم القصيدة اوسع من ان تستوعبها شخصية واحدة وهو اسلوب يزيد من حرية الشاعر ويسهم في تنويع النغم . وغيرها من ملامح ..

بل انه يمكن لنا ان نستشهد بمقاطع عدة من شعر عفيفي تدلل على انه يائس الى ابعد حدود اليأس . مقاطع تأتلفها كلمات الهروب والصمت والموت والليل والنار والهاوية والرعب والزحمة والصدا والوخم والجوع والفراغ ... والتي تطاوع هذا الفهم .

كذلك وبمثل السهولة يمكن ان نجد مقاطع اخرى تدل على تفاؤله حتى ليصبح الامل عنده قيمة كبرى يدفعه لرفض عالم اليأس وتحثه نحو عالم الصدق والبراءة ، فيدافع منها رفض شريعة الجلادين بدوائرها المربعة . وتجارة الاصداف وسكان المدينة الميتة بمفنيتها الشمطاء وشاعرها المتصابي وصحفها الغبية الاجيرة واعينها الشاخصة الرمداء . ولها ومن اجلها سافر :

« بعينيك يشتعل القمر الاخضر
وفي شفتيك تجوس الاغاني
وتحترق الكلمات الزواني
وانفاسك المشعلات الرحيمة
تشق محاريثها اللحصبية قلب الهزيمة
لينبت فيها الدم المزهر ... »

شاعر المركب اذن هو عفيفي حيث في عالم المركب يسكن ويقيم.. وحيث يصبح اليأس طريقا للامل والامل طريقا لليأس وكلاهما خصوبة وتحرر وتجدد وفي حوارهما قصة الانسان حيث :

« تدب خلال خوافي الاحرف أسماء أخرى للاشياء
فيموت العالم
يولد
يرقص .. في شفتيك ... »

تقول الاسطورة القديمة ان الفيلسوف اليوناني أنبادوقليس قد ألقى بنفسه في فوهة بركان « اتنا » لكي يموت من غير ان يخلف وراءه اثرا ليؤيد بذلك دعواه انه اله . ولكن النار غدرت به فقذفت بخفيه النحاسيين وتركتهما على حافة راس البركان كأنهما رمزان ثقيلان للفناء (ول ديورنت : حياة اليونان) .

... ومن خلال رحلة عفيفي الشعرية التي تشي بطائها الواعد وتستقطر الصدق وتحتضن التحليق الفكري والتوهج الشعري ويخفق نسيجها الحي بمذاق يموج بالعافية تظل ـ كما فعل من قبل انبادوقليس ـ دعوة الى المعرفة حارة وصادقة : ان ارحل الجميع من جزائر الملح الى فوهة البركان !

الخرطوم — محمد حافظ دياب

كتب سياسية وقومية

من منشورات دار الآداب

	ق. ل
ادب المقاومة في فلسطين المحتلة	٢٥٠
تأليف غسان كنفاني	
اقتراح دولة فلسطين	٢٠٠
تأليف احمد بهاء الدين	
النزاع السوفياتي الصيني	٥٠٠
تأليف جورج طرابيشي	
هكذا انتصر الفيتكونغ	٢٥٠
ترجمة ريمون نشاطي	
الكواكبي ، المفكر الثائر	٣٥٠
ترجمة علي سلامة	
ثورة كوبا	٤٥٠
فيدل كاسترو	
كاسترو يتكلم	٣٥٠
ترجمة فكتور سحاب	
تجارب اشتراكية	٤٥٠
ترجمة جورج طرابيشي	
المرأة والاشتراكية	٤٠٠
ترجمة جورج طرابيشي	
الوجه الآخر لامريكا	٤٠٠
ترجمة ادوار الخراط	
حرب العصابات	٢٠٠
تأليف ارنستو غيفارا	
قصة المقاومة الفيتنامية	٣٠٠
الجنرال جياب وآخرون	